اسمعيل باشا سري والري الصيفي

لما افتتح البارلمنت الانكليزي بالامس وخطب فيهِ ملك الانكليز ذاكرًا اهم المسائل الخطيرة اطال الكلام على زرع القطن وامَّل ان المساعي المبذولة لاتساع مساحة الاراضي التي يزرع القطن فيها تكلَّل بالنجاح

وما يهتم بهِ الآن ملك عظيم الشان مثل ملك الانكليز اهتمَّ بهِ محمد علي باشا منذ اعوام كثيرة ولا يزال اعظم ما يهتم بهِ اهالي هذا القطر وهو الغرض المقصود من توسيع نطاق الري الصيفي ومن " المشروعات المتجددة " التي عملها اسمعيل باشا سري في المديريات الوسطى من هذا القطر او لا يزال آخذًا في عملها فيها . وقد اطلعنا الآن على رسالة لاديب رأى هذه الاعمال ووقف على تفاصيلها فنقلنا عنها الفصل التالي قال :

في اول مارس سنة ١٨٩٩ وهو تاريخ يجب ان ينقش على افئدة جميع اهالي مصر الوسطى صدرت الاوامر الى سعادة اسمعيل باشا سري بتركهِ اشغال تفتيش ري القسم الثاني والقيام الى المنيا لتحضير مشروع لتحويل الاراضي التي كانت تروى في ايام الفيضان فقط الى نظام ري صيفي اي الى نظام ري مستديم

فظن بعض من لا يدركون دخائل الامور ولا يفسرون الحوادث الا بظواهرها ان سعادتهُ ترك منصب مصر وسكناها ونُقل الى الصعيد ابعادًا لهُ لاخلاء الجو لغيرهِ . وبقي هذا الظن متسلطًا على افكارهم الى ان اخذت اعمال المشروعات تبرز من حيز الفكر الى حيز الوجود وعند ذلك حدث شبه رد فعل في الافكار وعلم الجميع ان كبار موظفي الري قد اعطوا القوس باريها وان المشروع المجيد الذي انتدب صاحب الترجمة لاجلهِ اعظم مشروع من نوعهِ عمل في القطر السعيد من يوم جرى فيهِ نهر النيل المبارك . ولكي يدرك القارىء خطارة هذا المشروع الجليل وماهية الاعمال التي تعمل ومقدار الفوائد التي تعود على البلاد والعباد ابحث في الموضوع بحثًا تفصيليًّا فاقول

علم الخاص والعام ان الخزان العظيم الذي عمل في اصوان كان الغرض من تشييدهِ اولاً خزن المياه في اواخر الفيضان وحفظها ذخيرة ثمينة تهادى بها اراضي القطر في مدة الصيف ايام تكون مياه النيل شحيحة والزراعة الصيفية في اشد الحاجة اليها . والغرض الثاني منهُ اعطاء المياه الصيفية اللازمة لمساحات كبيرة من الاراضي التي كانت تروى ري حياض فقط . وري الحياض هذا هو ان المياه تعمُّ الاراضي في مدة النيل وتبقى فوقها مدة نحو ٤٠ يومًا ثم تصرف عنها ويزرعها الاهالي الزراعة الشتوية وتبقى الارض بعد حصدها خاوية خالية كانها لابسة

اثواب الحداد على عزها الماضي وحرمانها من ثوبها الاخضر القشيب. والاراضي التي كان في عزم نظارة الاشغال تغيير نظام ريها عند انتداب صاحب المشروع تبلغ مساحتها نحو ٣١٢٠٠٠ فدان وهي واقعة في اقاليم مصر الوسطى بين قناطر تقسيم ديروط جنوباً وصليبة حوض قشيشة شمالاً وبين مجرى البحر اليوسفي المشهور غرباً وجسر المحيط الغربي شرقاً. وسلسلة الحياض هذه تمتد في ثلاث مديريات وهي مديريات اسيوط والمنيا وبني سويف

قلنا ان المياه اللازمة لري هذه الاراضي صيفاً تيسرت بعمل خزان اصوان لخزن المياه ولكن وجود المياه ليس كافياً وحدهُ لضمانة الري وتوصيل الماء الى الاراضي ولذلك بنيت قناطر هجز على النيل في اسيوط تساعد لخزان اصوان يرفع منسوب مياه النهر لكي يدخل المقدار الكافي منها في الترعة الابرهيمية التي تنقل المياه الى المنطقة الصيفية القديمة والمنطقة الصيفية الجديدة التي هي موضوع كلامنا. بقي اذاً بعد ان تيسرت المياه الكافية وصار في الامكان توصيلها الى الاراضي شتاء وصيفاً عمل الاعمال اللازمة لتوزيعها على تلك الاراضي بتمام الترتيب والنظام وهذه هي اعمال المشروعات العظيمة

تقدَّم القول ان صاحب المشروعات حضر الى المنيا في اوائل سنة ١٨٩٩ وبعد حضوره رأى ان من مصلحة اعماله الجديدة مشاهدة بعض اعمال الري المهمة في اوربا لا سيما ما عمل منها في شمالي ايطاليا لما اشتهر عنها من ترقي الري فيها وانتظامه فطلب من نظارة الاشغال ان تأذن لهُ ليذهب بصفة رسمية الى تلك البلاد فاذنت لهُ في ذلك عن طيبة خاطر وسافر اليها في صيف سنة ١٨٩٩ وبعد ان قضى مدة شهر يطوف في تلك الاقاليم ويشاهد اعمال الري فيها عاد الى مصر واتحفها بمؤلف عن رحلته كتبهُ باللغة الانكليزية وسماهُ « الري في وادي نهر البو » جاء فيهِ على كل ما جلَّ نفعهُ وعظمت فائدتهُ ووصف حالة الري في شمالي ايطاليا وصفاً وافياً فحق لهُ ان يقول عن ذلك التقرير كما قال الفيروزابادي عن قاموسهِ « خذوا ايها الايطاليون وصف ربكم من رجل مصري »

وبعد عودتهِ الى المنيا قضى بقية عام ١٨٩٩ والعام الذي يليهِ مكبًّا على درس المشروع وتحضيرهِ فعمل تصميمات الترع والفروع اللازمة لضمانة ري جميع الاراضي رياً وافياً وقد اعطى للمصارف وفروعها حقها من الالتفات فلم يخطط ترعة لزيادة الحياة في الارض الاَّ وخطط بجانبها مصرفاً لحفظ تلك الحياة وضمانتها ووضع ايضاً تصميمات قناطر الموازنة لحفظ المياه على منسوبات معلومة ووضع رسومات اقمام الترع وقناطر الصرف لاعطاء المياه وصرفها عن الاراضي بمقادير قانونية وقرر مواقع قناطر المرور تسهيلاً لحركة الاهالي فجاء المشروع كافياً وافياً وارسلهُ الى

نظارة الاشغال العمومية فصادقت عليهِ كما هو بدون تغيير ولا تبديل وشرع في تنفيذهِ في اوائل سنة ١٩٠١ وبوشر العمل في القسم الشمالي من مديرية اسيوط وهو القسم الواقع شمالي قناطر حجز ديروط ومساحتهُ نحو ٥٨٠٠٠ فدان

فوزعت الاعمال من انشاء ترع وحفر مصارف واقامة قناطر وتشييد ابنية على المقاولين واستمرَّ العمل مدة سبعة اشهر واهالي تلك المنطقة يظنون ان زمان الاستبداد قد عاد وان الحكومة تقطع اراضيهم قصد اتلافها وبقية اهالي مصر لا يدرون ماهية ذلك العمل العظيم ولا يدرون اي روح جديدة تبث في جسم بلادهم الى ان جاء اليوم العاشر من شهر اغسطس سنة ١٩٠١ وهو اليوم الذي تقرر رسميًّا لفتح افام الترع التي انشئت في تلك المنطقة ودخول المياه اليها بانتظام لاول مرة في حياتها فاطلقت المياه في الترع في صباح ذلك اليوم في حفلة حافلة حضرها اكابر القوم واعيان مديريات اسيوط والمنيا وبني سويف وعدد كبير من الاهالي وكان من الحضور مديرو جرجا واسيوط والمنيا وبني سويف والفيوم وباشمهندسو المديريات التي ذكرناها فأُنشدت قصائد المديح وتليت خطب الثناء على المشروع وصاحبهِ ولكن انَّى لقرائح الشعراء ان تفي ذلك المشروع وصاحبهُ حقهما من المدح والثناء وانى لالسنة الخطباء ان تفيض بوصف تلك الاعمال العظيمة ونتائجها العجيبة وكل من جال في انحاء تلك الحياض في الاعوام الماضية ورأى كيف ان مياه الفيضان كانت تغرقها مدة ثلثة اشهر من السنة وحرارة الشمس تجففها مدة اربعة اشهر أُخرى ثم جاء وشاهدها الآن ورأى الزراعة فيها تتلو الزراعة والمحصول يجيء بعد المحصول والاراضي تنبت زبرجدًا والزبرجد يزهر فضة وتثمر ذهبًا ويفيض على السكان بالخيرات التي لم يكونوا ليحلموا بها بل لو اعارنا المنطاد جناحهُ والهواء براحهُ فارتفعنا بعض مئات من الاقدام فوق سطح تلك المنطقة وشاهدنا الترع كالشرايين تخرج من قلب قناطر ديروط وتنقل ماء الحياة الى كل جزء من اجزاء تلك المنطقة ورأينا المصارف كالاوردة تجري فيها المياه التي تصفت عن تلك الاراضي لادركنا ماهية العمل العظيم الذي قام بهِ هذا العالم المفضال وعلمنا حق العلم انهُ لا يزال في السوداء رجال

وفي اوائل سنة ١٩٠٢ باشر العمل في المنطقة الواقعة في مديرية المنيا ومساحتها نحو ١١٣٠٠٠ فدان فقسمها الى قسمين وباشر العمل في القسم الجنوبي منها ومساحتهُ نحو ٥٥٠٠٠ فدان فانشأ ترعهُ ومصارفهُ واقام ابنيتهُ على ما وصفناهُ في المنطقة السالفة الذكر وما جاء العاشر من اغسطس سنة ١٩٠٢ الاَّ وكانت هذه المنطقة ايضًا مستعدة تمام الاستعداد للري الصيفي فتدفقت في ترعها المياه وجرى في عروقها دم الحياة وأَخذ الاهالي في الحرث والزرع وكلهم

السنة شكر ودعاء ومدح وثناء على المشروع وصاحبهِ

وفي اوائل سنة ١٩٠٣ انتقل الى القسم الشمالي من منطقة المنيا وداهمهُ بخيلهِ ورجلهِ وهاجمهُ من كل ناحية وصوب ودامت المعركة مدة سبعة اشهر فانجلت عن انتصارهِ انتصاراً باهراً كما هو المنتظر وتمَّ الى مساحة الاراضي الصيفية نحو ٥٨٠٠٠ فدان من اراضي الحياض ونشر فيها اعلام العصر الحديث فوق اطلال العهد القديم وبرهن للملإ ما توصل اليهِ الري في مصر من التقدم والترقي

وقد سهَّل للفلاح كل السبل وعلَّمهُ كيف يوزع المياه فوضع تحت تصرف الترع وفروعها اقلاماً من المواسير لساق فرعية تروي كل منها نحو خمسين فداناً ريًّا تامًّا فلم يبقَ على الفلاح بعد ذلك الاَّ ان يفتح فم مسقاهُ حتى تتدفق الى ارضهِ المياه ومتى تمَّ ريها على ما يشتهي يعود فيقفلهُ بسهولة

ثم انهُ وجد ان المواصلات بين البلاد قد تعسرت بسبب تقطع الاراضي بالترع والمصارف فوضع مشروعاً مفصلاً لعمل سكك زراعية تصل بين البلاد المهمة وترصلها الى اقرب محطة من محطات السكة الحديدية ومنها الى شاطئ النيل وذلك لكي يسهل للاهالي الانتقال من مكان الى مكان ولا يتعذَّر عليهم ان ينقلوا اثقالهم من محصولات وغيرها باسهل الطرق واقربها سواء كان على ظهر الحمار او في عباب البحار

فيجمع مما تقدم ان صاحب المشروع قد اتمَّ تحويل نحو ١٧٠٠٠٠ فدان للري الصيفي في السنوات الثلاث السالفة الذكر وبقي عليهِ بحسب التصميم الاصلي الذي ذكرناهُ في اول هذه المقالة نحو ١٤٠٠٠٠ فدان اخرى الاَّ ان نظارة الاشغال العمومية وجدت ان المياه التي يخزنها الخزان تزيد كثيراً عما يطلبهُ المشروع الاصلي فارتأت ان تحوِّل بقية حياض مديرية بني سويف وحياض مديرية الجيزة ايضاً الى الري الصيفي المستديم وتبلغ مساحة هذه الاطيان نحو ١٧٣٠٠٠ فدان . فطلبت من صاحب الترجمة ان يدرس هذا المشروع الجديد ويضع لهُ الرسوم والتقادير اللازمة كالمعتاد ففعل وارسل نتيجة مباحثهِ الى النظارة في سنة ١٩٠٣ ولا تزال الى الآن في معرض البحث والمراجعة وعليهِ فيكون ما لا يزال مصمماً على تنفيذهِ من هذا المشروع العظيم نحو ٣١٣٠٠٠ فدان اي نحو ضعفي ما تمَّ تنفيذهُ الى الآن ويقتضي لاتمام ما بقي خمسة او ستة اعوام من اول سنة ١٩٠٤

وهنا اطال الكاتب في وصف هذا المشروع واطنب في تبيان فوائدهِ فانهُ يعجز عن ان يرسم في ذهن القارىء صورة واضحة لفخامتهِ ولا تتضح هذه الصورة الاَّ بالبراهين القاطعة وعليهِ فسأذكر بمجمل ما جمعتهُ عن الاعمال التي عملت لاخراج ما تمَّ من المشروع من حيز الفكر الى عالم

الوجود وبيان الفوائد التي عادت منهُ على القطر عمومًا وعلى اصحاب الاطيان خصوصًا فاقول : --

يعجب القارئ اذا علم ان مقدار ما حُفر من التراب في انشاء الترع والمصارف وفروعها وفي توسيع بعض الترع وتعديل البعض الآخر في السنوات الثلاث الماضية من اول سنة ١٩٠١ الى آخر سنة ١٩٠٣ بلغ خمسة وعشرين مليونًا من الامتار المكعبة وهذا المقدار من التراب قد رفع على اكتاف نحو ١٠٠٠٠٠ من العمال احضرهم المقاولون من اهالي الصعيد لا بالسوط والتهديد كما كانت تفعل الفراعنة من قديم الزمان وحكام مصر المحدثون قبل عهد الاصلاح بل بالدرهم والدينار الذي كانت الحكومة تنفقهُ من خزائنها عن طيبة خاطر

وبلغ عدد الابنية التي اقيمت نحو ٨٥٠ بناء من قناطر موازنة واقام ترع ومصبات مصارف وقناطر للمرور وسحارات وهدارات ومنازل للتفتيش

وبلغ طول الترع التي عملت ١٠٤٠ كيلومترًا وطول المصارف ٨٥٥ كيلومترًا فيكون مجموع هذه المجاري نحو الفي كيلومتر اي نحو ضعف المسافة بين الاسكندرية واصوان

وبلغت نفقات هذه الاعمال جميعها نحو ٨٢٠٠٠٠ جنيه مصري صرفت جميعها من خزائن الحكومة وستردُّ اليها على اقساط من علاوة الضرائب التي ستضرب على الاراضي التي تمَّ اصلاحها

واذا جعلنا الماضي قياسًا للمستقبل وحفظنا النسبة بين ما تمَّ من المشروع وبين ما سيتمُّ في الاعوام القادمة وجدنا ان مايلزم لاتمام المشروع باكمله هو انشاء نحو ١٩٠٠ كيلومتر من الترع ونحو ١٦٠٠ كيلومتر من المصارف وتبلغ مقادير التراب الذي يستخرج منها نحو ٥٠ مليون متر مكعب وتقتضي بناء نحو ١٦٠٠ من انواع الابنية التي فصلناها في ما تقدم ويبلغ المال الذي سوف ينفق في سبيل اتمام كل هذه الاعمال نحو ١٦٠٠٠٠٠ جنيه او قل من مليوني جنيه

ولبيان الفوائد التي نجمت عن ذلك المشروع لابدَّ للقارئ ان يعلم ان الفدان من الاطيان التي تحوَّلت الى نظام الري المستديم كان لا يساوي قبل تغيير نظام ريهِ اكثر من ٣٠ جنيهًا وكان محصولهُ لا يزيد على جنيهين او جنيهين ونصف سنويًا اما الآن فقد اصبح لا يباع باقل من سبعين جنيهًا ومحصولهُ لا يقلُّ عن عشرة جنيهات في السنة واذا اخذنا من الماضي اعلى الاثمان واكبر المحصولات ومن الحاضر اقلها واعتبرنا الثمن الماضي ٣٠ جنيهًا والثمن الحالي ٦٠ ومقدار المحصول في الماضي ٣ جنيهات والحالي ثمانية فقط وجدنا ان ما تمَّ تحويلهُ الى الري الصيفي يزيد في ثروة البلاد نحو خمسة ملايين من الجنيهات وفي ايراد اصحاب تلك الاراضي السنوي نحو ٨٠٠٠٠٠ جنيه سنويًا. واذا جعلنا الماضي قياسنا هنا كما جعلناهُ في تقدير عظمة المشروع نجد ان هذا المشروع الكبير سيزيد في ثروة القطر المصري بعد تمامهِ نحو خمسة عشر

مليونًا من الجنيهات على الاقل ويزيد في ايراد الاهالي نحو مليوني جنيه سنويًّا . فهذه فوائد المشروع الجليل الذي قام بهِ سعادة الهمام اسمعيل سري باشا في اراضي مصر الوسطى وتلك هي عظمة العمل الذي ربما لم يسمع بهِ كثيرون من سكان وادي النيل

خطر علينا وعلى الدين

تمهيد

مضى زمن طويل لم أُرِد ان احرك فيهِ لسانًا او أُجري على القرطاس قلمًا اعتقادًا مني بان البرهة يمضيها الناشئ في التحرير خير منها الف مرة برهة يمضيها في المطالعة والاستفادة . وليست الغوغاء التي يخلقها المرء حول اسمهِ طلبًا للشهرة بنافعةٍ الاَّ الى حين ثم ينكشف ذلك الطلاء الكاذب فيظهر الجوهر ناقصًا معيبًا لا محيص لهُ من السقوط . ولقد كنتُ منذ عامين احببت ان اكتب الكلمة التي انا اليوم كاتبها نصيحةً لامتي واحترامًا لدينها ولكني اعترتني الرهبة وخشيت ان استفزَّ غضبها لدعوة كنتُ لا يزال يعتريني بعض الشك في صحتها ففضَّلت ان اطويها خاطرًا في صدري وتركت للزمن ان ينضجها بعد ان تثقف وتصقل في نار البحث والتدقيق فإما هي معدن فاسد يلقى في زوايا النسيان وإما هي جوهر كريم يصحُّ ان يهدى الى عرائس الاذهان

والآن بعد مرور عامين طويلين قلَّبت فيهما تلك الدعوة على جميع وجوهها وعرضتها على محل النقد والمناقشة لا اجدني اخطأت الاَّ في عدم الجهر بها الى الآن مع شدة احتياجنا الى معرفتها والعمل بها لا سيما في هذه الايام التي شاعت فيها كلمة الدين من اناس اتخذوها تجارة فلم يعد يهمهم الاَّ ان ترددها افواههم صباحَ مساء وسيلة للتغرير واحتيالاً لكسب رضى العامة وشيوع ذكرهم بينها غير ملتفتين الى الخطر العظيم الذي يدفعون اليهِ الامة ودينها كما اندفعت اليهِ اوربا من قبل فكانت النتيجة وبالاً على المسيحية والمسيحيين

والذي اريدهُ بعد ذلك من كل قاريء ان يمعن النظر كل الامعان في معنى ما اقولهُ واقصدهُ فلا يحمل اقوالي على غير محملها ولا يندفع مع تيار الغضب ليرميني بما انا بريءٌ منهُ في حين انهُ لو تجرَّد برهة عن اوهامهِ التي ارتكزت في ذهنهِ ونظر في الامر بعين فكر سليم لا يدين الاَّ بما يفهم لانجلت لهُ الحقيقة ولعرف ان ما اكتبهُ اليوم اقل ما يمكن ان يقال في مثل هذا المقام